الفصل الثانى

القاضى الجرجانى فى عصره

١ ـ حياته

القاضى الجرجانى هو علىّ بن عبد العزيز ، ويذكر بعض مؤرّخيه له ثلاثة من الأجداد ، هم : الحسن ، علىّ ، وإسماعيل[١] .

وكان مولده بجرجان[٢] ، التى وصفها ياقوت الرومىّ بقوله : « وهى مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان . . . . وهى أكبر مدينة بنواحيها ، وهى أقل ندى ومطراً من طبرستان ، وأهلها أحسن وقاراً ، وأكثر مروءة ويساراً . . . وأهلها يأخذون أنفسهم بالتأنّى والأخلاق المحمودة ... وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدّثين . ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمى ...»[٣] .

وهكذا كانت البيئة الأولى التى ولد فيها « على » ، بيئة تؤهل مَن عنده استعداد لأن يبرّز فى العلم والأدب ، وأن يتولى من المناصب ما يحتاج إلى الرّزانة والوقار والخلق الحميد كمنصب القضاء .

أما تاريخ ولادته فيختلف فيه مؤرّخوه ، وإذا كان الوضع الطبيعى الذكر تاريخ الوفاة هو آخر ترجمة الحياة ، فإننا هنا مضطرون إلى أن نذكر تاريخ الوفاة ؛ لأنه هو الذى يحدّد لنا تاريخ الميلاد .

فابن خلكان فى وفيات الأعيان يروى عن مؤلف تاريخ النّيسابوريّين أنه توفّى فى سلخ صفر سنه ستّ وستين وثلاثمائة ، وعمره ستّ وسبعون سنة ؛ وعلى

---

(١) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .
(٢) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .
(٣) معجم البلدان ٣ : ٧٥ .

ذلك يكون تاريخ ولادته سنة تسعين ومائتين . ويرجّح ابن خلكان هذه الرّواية ، ويقول : إنها أثبت وأصحّ[١] .

كما نقل ابن خلكان أيضاً رواية من ذهب إلى أنه توفى سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة[٢] ، وإلى أنّ محمداً أخاه ورد به نيسابور فى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة[٣] ، وهو صغير غير بالغ[٤] ؛ فإذا قدّرنا أنّ سنّه يومئذ كانت خمسة عشر عاماً يكون قد ولد فى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، ويكون قد أدرك السبعين يوم وفاته .

أما أنا فأخالف ابن خلكان ، وأرجّح هذه الرّواية للأسباب الآتية :

أوّلهما : أنى أرجح أنه مات بعد الصاحب بن عبّاد ؛ يقول الثعالبى : « وتصرّفت به أحوال فى حياة الصاحب ، وبعد وفاته : من الولاية والعطلة »[٥] ؛ وقد توفى الصاحب سنة خمس وثمانين وثلاثمائة[٦] .

وثانيهما : أنه اتصل بشمس المعالى قابوس بن وشمكير[٧] الذى تولى الحكم فى جرجان بعد سنة ست وستين وثلاثمائة[٨] .

وثالثها ، وهو يكاد يكون قاطعاً فيما ذهبنا إليه : أن الصاحب بن عباد قد صار وزيراً ابتداء من سنة ٣٦٦ هـ[٩] أما قبل ذلك فكان كاتباً للأمير البويهى

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ . وأخذ بهذه الرواية صاحب شذرات الذهب .

(٢) بهذه السنة أرّخ ياقوت فى معجم الأدباء (١٤ : ١٥) عام وفاة القاضى ، وحدد السبكى شهر وفاته فى هذا العام بذى الحجة (طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨) ، وحدد بروكلمان يوم الوفاة بالرابع والعشرين من هذا الشهر (١٤ نوفمبر سنة ١٠٠١ م) — تاريخ الأدب العربى ٢ : ٢٧١ . وجعله ياقوت يوم الثلاثاء .

(٣) كتبت فى بروكلمان خطأ : سنة ٣٧٧ هـ ، وأغلب الظن أنها خطأة مطبعية .

(٤) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ : وروى ذلك أيضاً السبكى فى طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .

(٥) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

(٦) الصاحب ابن عباد ص ٤٤ .

(٧) راجع معجم الأدباء ١٤ : ٣٠ ، ويتيمة الدهر ٤ : ١٥ .

(٨) تاريخ الدولة العباسية للخضرى ص ٤٤١ .

(٩) الصاحب بن عباد ص ٢١ .

مؤيد الدولة ، وشعر القاضي الجرجاني فيه يصفه بالوزير ، إذ يقول من قصيدة يهنئه فيها بالبرء من المرض :

إذا ألمت نفس الوزير تألمت ... لها أنفس تحيا بها وقلوب
ووالله لا لاحظت وجهاً أحبه ... حياتي ، وفي وجه الوزير شحوب

مما يدل على أنه كان متصلا به بعد هذه السنة التي قيل إنه مات فيها .

وتلك الرواية الثانية هي التي أخذ بها بروكلمان وجعل غيرها خطأ(١) .

وأغلب الظنّ أنّ علي بن عبد العزيز تلقّى ثقافته الأولى ببلده جرجان ؛ فإن أول رحلة له في طلب العلم كانت — على ما أرجح — إلى نيسابور ، حيث صحبه أخوه إليها ، وكان صغيراً لم يبلغ الحلم ، كما ذكرنا .

ولست أدري السبب الذي دفع القاضي الجرجاني إلى الرّحيل عن بلده جرجان ، ولكني أرجّح أن الفتى عليًّا توفي أبوه ، وهو في سنّ مبكرة ؛ فعني بأمره أخوه محمد . فلما أراد هذا الأخ أن يرحل في طلب العلم صحب معه في الرّحلة أخاه الصغير ، وقصد نيسابور التي يصفها ياقوت بأنها « معدن الفضلاء ، ومنبع العلماء »(٢) ، حيث سمعا من سائر شيوخ المدينة(٣) .

ويظهر أنه أطال المقام في نيسابور ، أو أنه كان يتردد عليها في الحين بعد الحين ، ويطيل المقام فيها ، مما جعل مؤرّخ النيسابوريين يتحدّث عنه في كتابه ، بل يزعم أنه مات في نيسابور (٤).

وتفتّحت نفسه في هذه الرّحلة لطلاب العلم ، ورأى فيها مجالاً للاغتراف من الثقافة بأوفى نصيب ، فمضى يجوب البلاد الإسلامية ، ليلقى العلماء ، ويأخذ عنهم ، يقول الثعالبي : « وقد كان في صباه خلف الخَضِر في قطع عرض الأرض ، وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرهما ، واقتبس من أنواع العلوم

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧١ .
(٢) معجم البلدان ٨ : ٣٥٦ .
(٣) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ ، ووفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .
(٤) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

والآداب ما صار به فى العلماء علماً، وفى الكُمّال عالماً[١] » ، ويقول ياقوت : إنه « لقّى مشايخ وقته ، وعلماء عصره[٢] » .

وإذا نحن عرفنا أن القاضى الجرجانى ألف فى التفسير والتاريخ والفقه والنقد وله شعر ورسائل ، استطعنا أن نستنبط ما أفاده فى هذه الرّحلات من ثقافة واسعة فى الشريعة والأدب ، وكتابه الوساطة يدل على اطلاع واسع على دواوين الشعراء السابقين ، وعلم غزير باللغة ، ومعرفة بالغريب ، ومقدرة على فهم معانى الشعر ، وتمكن من النحو والعروض ، واتصال وثيق بما كتبه النقاد من قبل .

والرّاجح عندى أن ثقافة القاضى الجرجانى كانت عربية خالصة ، لم يتصل فيها بالنقد اليونانىّ . وربما يكون قد ألمّ ببعض نواحى الفلسفة اليونانية ، مما مكّنه من معالجة بعض الشعر الفلسفى للمتنبى .

وإن رحلاته الكثيرة هى التى جعلته يقول :

مالى وَمالَك يا فرَاق أبداً رحيل وانطلاق[٣]

ولعلّ بغداد كانت أكبر مدينة تركت فى نفسه أثراً بالغاً . فقد تغنى بها طويلا بعد أن فارقها . وحنّ إلى معاهدها ، وذكرياته فيها . وأنشأ فى ذلك عدّة قصائد لها أثرها العميق فى النفس .

وكان يتمنى أن لو عاد إليها .

ولعله انكفأ راجعاً إلى بلده ، بعد أن وعى صدره من العلم والأدب ما وعى ؛ وربما كان يأمل أن يجد تقديراً من حكام عصره ، فيولّوه عملا يدر عليه رزقاً واسعاً يناسب ثقافته العالية ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق ، ورأى دون الوصول إليه ما لا تحتمله نفسه ، ولا يطيقه خلقه : من خضوع ونفاق . فانزوى فى بيته ، منفقاً من صبره ، مؤمناً بأنه لا يكفيه همّ الرزق إلا إنسان حرٌّ لا يكلفه إذلال نفسه ؛ وربما طلب إليه صحبه أن يرحل ليعيش فى كنف

---

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .
(٢) معجم الأدباء ١٤ : ١٦ .
(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

أمير أو وزير . فيقول :

وقالوا : اضطربْ فى الأرض ، فالرّزق واسعٌ
فقلتُ : ولكن مطلبُ الرّزق ضيّقُ

إذا لم يكن فى الأرض ، حُرٌّ يعيننى
ولم يكُ لى كسبٌ فمن أين أرزق(١)

وقد حقق الله للقاضى أمله يوم هيّأ له الاتصال بالصاحب بن عباد ، الذى صار وزير بنى بويه ، والذى « كان نادرة الدّهر . وأعجوبة العصر ، فى فضائله ، ومكارمه ، وكرمه » « عالى المحلّ فى العلم والأدب »(٢) .

واشتدّ اختصاص القاضى بالصاحب ، وحلّ عنده محلا رفيع المكانة ، وأجلّه إجلالاً يبين عنه ما بقى من آثار الصاحب .

قال القاضى : انصرفتُ يوماً من دار الصاحب ، وذلك قبيل العيد . فجاء رسوله بعطر الفطر ، ومعه رقعة بخطه فيها هذا البيتان :

يأيها القاضى الذى نفسى له ... معَ قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديتُ عطراً مثل طيب ثنائه ... فكأنما أهدى له أخلاقه(٣)

وولاه الصّاحب قضاء جرجان(٤) . وهنا كانت الفرصة سانحة لعلىّ ابن عبد العزيز أن يظهر فى مدينته ، بتبوّئه فيها ذلك المنصب الكبير .

ولست أدرى ماذا فعل القاضى فى جرجان من الوسائل التى ينبنى عليها المجد ، فهل كان يجلس فى قومه مجلس الأستاذ ، يذيع بينهم علمه الغزير ، أو أنه التزم جانب العدالة فى قضائه ، حتى وجد المظلوم فى كنفه العدل والأمان ؟ أو أنه استخدم جاهه وصلته بالصاحب الوزير ، فأفاد أهل بلده بذلك الجاه العريض ؟

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٨ .
(٢) مقتبسات من وفيات الأعيان ١ : ٧٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٠ .
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

لست أدرى ماذا فعل القاضى حتى صحّ له أن يقول :

وشيّدتُ مجدى بين قومى ، فلم أقل : ألا ليت قومى يعلمون صنيعى[١]

وكان القاضى يقول : إنّ الصّاحبَ يقسمُ لى من إقباله وإكرامه بجرجان أكثر مما يتلقانى به فى سائر البلاد ؛ وقد استعفيته يوماً من فرط تحفّيه بى ، وتواضعه لى ، فأنشدنى :

أكرِم أخاك بأرض مولده وأمِدّه من فعلك الحسن

فالعزّ مطلوب ومُلْتَمَسٌ وأعزّه ما نيل فى الوطن[٢]

ولعل الصّاحب أراد أن يكون القاضى بجواره دائماً فولاه قضاء الرّىّ[٣] ، حيث يقيم الصاحب ؛ وفى الرّسالة التى كتبها الوزير إلى حسام الدّولة ، أبى العباس تاش الحاجب ، ما يدلّ على إعجاب الصاحب بالقاضى إعجاباً حمله على ألا يفارقه ، فقد كتب الصّاحب بخطه كتاباً إلى هذا الأمير ، عندما أراد القاضى السفر إلى جرجان لأمر من الأمور ، وجاء فى هذ االكتاب : « قد تقدّم من وصفى للقاضى أبى الحسن علىّ بن عبد العزيز فيما سبق . . . من كتبى ما أعلم أنى لم أؤد فيه بعض الحقّ ، وإن كنت دللته على جملة تنطق بلسان الفضل ، وتكشف عن أنه من أفراد الدّهر ، فى كل قسم من أقسام الأدب والعلم ؛ فأما موقعه منى فالموقع الذى تحظيه هذه المحاسن ، وتوجبه هذه المناقب . وعادته معى ألا يفارقنى مقيماً وظاعناً ، ومسافراً وقاطناً ؛ وقد احتاج الآن ، إلى مطالعة جرجان ، بعد أن شرطت عليه تصيير المقام كالإلمام . . . فإن رأى الأمير أن يجعل من حظوظى الجسيمة عنده تعهد القاضى أبى الحسن بما يعجلّ ردّه ؛ فإنّ ما غاب كالمضل الناشد ، وإذا عاد كالغانم الواجد ، فعل إن شاء الله[٤] » .

---

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .

(٢) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣ . نقلا عن اليتيمة .

ومن تلك الرّسالة يتبين تقدير الصاحب للقاضى ، حتّى جعله من أفراد الدهر . ويتبين أيضاً مقدار حرصه على أن يبقى القاضى إلى جانبه ، حتّى صار كأنما هو من أفراد أسرة الصّاحب[١].

وقابل القاضى الجرجانى هذا الحبّ والتقدير بود وإعجاب بالغين .

ولست أدرى السبب الذى من أجله كان القاضى الجرجانى يترك منصبه فى حياة الصاحب وبعد وفاته[٢] ، وهل كان من أسرار ذلك حنينه إلى العلم ورغبته الملحة فى الدراسة والاطلاع ، حتّى قال :

ما تطعّمت لذّة العيش حتّى صرْتُ للبيت والكتاب جليسا
ليس شيءٌ أعز عندى من العلـ ـم ؛ فلِم أبتغى سواه أنيسا
إنما الذّلّ فى مخالطة النا س ؛ فدعهم ، وعش عزيزاً رئيسا[٣]

وترقى محل القاضى الجرجانى إلى أن صار قاضى القضاة بالرّى ، ولم يعزله إلا موته[٤].

وإلى جانب هذا المنصب الكبير ذاع اسم القاضى فى أرجاء العالم الإسلامى بما نثر ونظم وألّف .

وقد عرف القاضى الجرجانى بعض كبار الرجال غير الصاحب ومدحهم .

ومما لا شك فيه أنّ القاضى الجرجانى كان له تلاميذه الذين قرءوا عليه ، وأخذوا عنه ، ولكن مؤرّخيه لم يذكروا أحداً من هؤلاء التلاميذ إلا عبد القاهر الجرجانىّ ؛ فقد روى ياقوت أنه قرأ عليه ، واغترف من بحره ، وكان إذا ذكره فى كتبه تبخبخ به ، وشمخ بأنفه بالانتماء إليه[٥].

وإنى أشكّ فيما رواه ياقوت من أنّ عبد القاهر قرأ على القاضى الجرجانىّ

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢ نقلا عن اليتيمة أيضاً .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .
(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .
(٥) معجم الأدباء ١٤ : ١٦ .

شيئاً ، لأنّ القاضي توفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ؛ فمتى يكون عبد القاهر قد أخذ عنه ؟ لقد توفي عبد القاهر سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، فإذا كان قد أخذ عن القاضي الجرجاني ، فلا بدّ أن يكون عبد القاهر قد ولد قبل وفاته بنحو خمسة عشر عاماً على الأقل ، حتى يستطيع أن يأخذ عن عالم واسع العلم كالقاضي ؛ ومعنى ذلك أنّ عبد القاهر ولد حول سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ؛ فيكون عند وفاته قد أربى على تسعين عاماً ، ولم يشر أحد من مؤرخيه إلى أنه طعن في السنّ إلى مثل هذا الحدّ ؛ مما يرجح أنّ أخذ عبد القاهر عن القاضي كان أخذاً عن كتبه ، لاشخصه[١] .

ويصمت التاريخ صمتاً مطبقاً حول حياته الخاصة ، فهل تزوّج القاضي الجرجاني وكوّن أسرة وأنجب أولاداً ؟ أو أن رحلاته في طلب العلم قد استغرقت شبابه ، حتى إذا رجع إلى بلده وجد ضيق العيش في انتظاره ، حتى إذا انفسحت أمامه الآمال عندما اتصل بالصاحب بن عباد — كان وقت الزّواج قد تولى ، فانصرف إلى كتبه يقرؤها ، وإلى قرطاسه وقلمه يسجل ما انتهى إليه من أفكاره وتجاربه ؟ لا يجيب التاريخ عن ذلك السؤال .

وتوفي القاضي الجرجاني ، وهو قاضي القضاة بالرّي[٢] ، وزعم مؤرّخ النيسابوريين أنه توفي بنيسابور[٣] ؛ ويجمع مؤرّخوه على أن تابوته نقل إلى مسقط رأسه جرجان [٤]، حيث شيعته مدينته تشييعاً حافلا . وصلى عليه القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ، وحضر جنازته الوزير الخطير أبو علي القاسم بن عليّ بن القاسم وزير مجد الدّولة راجلا[٥] ، حيث أودعه مقرّه الأخير .

---

(١) عبد القادر الجرجاني ص ٦ .
(٢) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ ، وطبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .
(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .
(٤) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ ، وطبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ ، وشذرات الذهب ٣ : ٥٦ .
(٥) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ .

٢ – صورته الجسمانية والنفسية

ليس فيما بين يدىّ من مصادر تاريخه ما يلقى ضوءاً ما على صورته الجسمانية ، ولم يرد فى شعره الذى بقى لنا ما يشير إلى شىء من هذه الصورة ، ومن أجل ذلك أرجح أنه كان إنساناً عادياً ، لا ترى العينُ فيه شذوذاً يستوقفها .

أما صفاته النفسية فإنا نرى عند مؤرّخيه إعجابهم به إعجاباً بلغ بياقوت أن يقول فيه : إنه أريب كامل[١] .

وأول ما نلحظه من صفاته : الذكاء . فقد رأيناه قبل أن يبلغ سنّ الرّشد فى نيسابور مع أخيه محمد يتردّد على شيوخها ، ويأخذ العلم عن أعيان علمائها [٢] . ورأينا أثر هذا الذّكاء فيما اهتدى إليه القاضى الجرجانى من مبادئ فى النقد كان لها أثرها الكبير فى النهوض بالنقد وحسن توجيهه . وكان من تقدير القاضى للذّكاء أن جعله من أسس صفات الأديب [٣] .

وثانى ما نلحظ فيه : مقدرته على التحصيل . وهو بهذه الصفة وسابقتها يستطيع أن ينتفع بما يقرأ ، وأن يستنبط مما يعرفه قواعد يضيف بها جديداً إلى ثروة العلم ، وذخيرة الأدب ، وقد أشار مؤرّخوه إلى هذه المقدرة . فذكر الثعالبى أنه اقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به فى العلماء علماً وفى الكمّال عالماً[٤] ، وقال ابن خلكان فى الحديث عن كتابه : الوساطة : إنه أبان فيه عن فضل غزير ، واطلاع كثير ، ومادّة متوفرة[٥] .

وثالث ما نلحظه من صفاته : الصراحة فى قول الحق ، وليس أدلّ على

---

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .
(٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ١٤ .
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .
(٥) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٥ .

هذه الصّفة من تأليفه كتاب الوساطة ؛ فنحن قد رأينا فيما مضى الصلة الوثيقة التى ربطته بالصاحب بن عباد ، ورأينا حبّ الصاحب له حبًّا مبنيًّا على التقدير والإعجاب ، وسوف نرى قصائد المدح التى أنشأها القاضى فى الصاحب شكراً له وتسجيلا لفضله ، ومع كلّ ذلك لم يتردّد القاضى الجرجانى عند ما ألف الصاحب كتابه : الكشف عن مساوئ المتنبى — أن يعلن رأيه فى الشاعر صريحاً وإن خالف رأى الصّاحب .

وسواء أكان تأليف كتاب الوساطة قبل أن يتصل بالصاحب ، أو وهو متصل به ، أم بعد أن مات الوزير ، فليس ذلك بمنتقص من صراحة القاضى ، ولا بغاضٍّ من شأنها :

فلو أنّه كتبه قبل أن يتصل بابن عباد فإنّ هذه الصراحة لم تدفعه إلى أن يجامل رجلا مرموق المكانة ، رفيع المنزلة ، مأمول الجاه ، مرجوّ العون : ولو أنه كتبه بعد وفاته فهذه الصراحة أيضاً لم تدعه يجامل صديقاً لا يرى الحقّ إلى جانبه ؛ وأمر الصراحة فى قول الحقّ واضح إذا كان القاضى قد أنشأ الكتاب فى حياة الصاحب .

ورابع ما نذكره : حبّه للصدق ؛ فلا يصدر حكماً مبنيًّا على هوى ؛ وكان ذلك هو الذى دفعه إلى تأليف كتاب الوساطة ، فقد رأى الكثير من أحكام الصاحب صادراً عن الغيظ الذى ملأ صدره على المتنبى .

وخامس صفاته : ميله إلى العدالة ، ولذلك سجل له التاريخ أنه كان حسن السيرة فى قضائه ، صدوقاً [1].

وإن تلك الصّفات هى التى أهّلته لولاية القضاء ، وتأليف كتابه الخالد : الوساطة .

وسادس ما نستطيع أن نصفه به : الصبر ؛ فهو يصبر على الفقر ، ويمنع

---

(١) المرجع السابق نفسه .

نفسه من شهواتها إذا لم يجد ما ينفقه فى زمن العسر ، مؤمناً بأنه إذا لم يجد المرء عند نفسه ذخيرة من الصبر يلجأ إليها فى أيام الفاقة ، فإن للناس العذر إذا لم يقدموا إليه مالا ينفقه على رغائبه .

والصفة السابعة هى التى دفعته إلى الصبر وحملته عليه ، وهى عزة النفس والأنفة من إذلالها ، وهو لذلك لا يرى الخضوع لأرباب المال والسلطان وسيلة إلى الرّزق الواسع والغنى العريض .

والصفة الثامنة تتصل اتصالا وثيقاً بعزة النفس ، وتلك هى انقباضه عن الناس ، وإيثاره للعزلة عنهم ؛ لأنه يرى فى القرب من أصحاب السلطان خضوعاً لا يرضاه ، كما ذكرنا ، ويرى فى القرب من الناس ما يدفعهم إلى الاستهانة بأمره والغض من قيمته ، وله فى ذلك قصيدة مشهورة يقول فيها :

يقولون لى : فيك انقباض ، وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذّل أحجما
أرى الناس : مَن داناهمو هان عندهم ... ومَنْ أكرمتهُ عزّةُ النفس أكرما
وما زلتُ منحازاً بعرضى جانباً ... من الذمّ ، أعتد الصّيانة مغنما
إذا قيل : هذا مشرب ، قلت : قد أرى ... ولكن نفس الحرّ تحتمل الظما
ولم أقض حقّ العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرّتهُ لىَ سلّما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأخدُمَ من لاقيتُ ، لكن لأُخدَما
أأشقى به غرساً ، وأجنيه ذلةً ... إذاً فاتّباعُ الجهل قد كان أحزما
ولو أنّ أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه ، فهان ، ودنّسوا ... مُحيّاهُ بالأطماع ، حتى تجهّما[1]

فهو يرى من حقّ العلم أن يكون صاحبه رئيساً مخدوماً ، لا خاضعاً ذليلا لمن بيدهم المال والجاه ؛ ويضحى بزينة الحياة الدّنيا إذا صحبها الهوان والذّل .

---

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٢ ، ومعجم الأدباء ١٤ : ١٧ ، والنثر الفنى ٢ : ١١ . والمحيا : الوجه . وتجهم : صار عابس الوجه . والذى فى المعجم : (ولكن أذلوه جهاراً . . .) .

وصفه الانقباض عن الناس تحفظ له وقاره ، وهى كذلك بلا شك ترشحه لمنصب القضاء ، وتتفق مع هذا المنصب .

ولم يكن اتصاله بالصاحب بن عباد غاضًّا من عزّة نفسه ، أو نزولا منه عن كرامته ، فقد رأينا فيما أسلفناه تبجيل الصاحب للقاضى تبجيلا كان القاضى يستعفى الصاحب منه « لفرط تحفّيه به ، وتواضعه له »[1] .

ويظهر لى أنّ صفة الانقباض عن الناس ، وإيثار البعد عنهم كانت من أبرز سماته التى لحظها فى نفسه ؛ فلم يكن انقباضه عن كبار الرّجال فحسب . ولكن عن صحبه كذلك ، فقد كتب إلى أخوين له يعتذر من انقباضه عنهما ، وإغبابه زيارتهما :

أيا معهدَ الأحباب ، ذكّرهمُ عهدى
ودُمْ لى ، وإن دام البعادُ ، على الوُدّ
ولى خُلُق لا أستطيع فراقه
يُفوّتُنى حظىّ ، ويمنعنى رشدى
نفور عن الإخوان من غير ريبة
تعدّ جفاء ، والوفاء لهم وكدى[2]
غذيت به طفلا ، فإن رمتُ هجره
تأبّى ، وأغرتنى به ألفة المهد
على أننى أقضى الحقوق بنيّتى
وأبلغ أقصى غاية القرب فى بُعدى
ويخدمهم قلبى ، وودّى ، ومنطقى
وأبلغ فى رعى الزّمان لهم جهدى[3]

---

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٢١ .
(٢) وكدى : قصدى .
(٣) جهدى : طاقتى .

فإن أنتما لم تقبلا لى عذرة
وألزمتمانى فيه أكثر من وُجدى
فقولا لطبعى أن يزول ؛ لأننى
أرى الكما حقّ الموالى[١] على العبد[٢]

والقطعة صريحة فى وصف هذه الخصلة ، وأنها متأصلة فيه ومن طباعه التى لا يستطيع أن يفارقها ، مع إيمانه بأنّ هذا الخلق يحول بينه وبين لذائذ الحياة .

وصفة تاسعة نستطيع أن نصفه بها مطمئنين ، تلك هى حبّه للجمال ، فقد تغنى بمظاهر الحسن ، وهفا إلى الجمال فى شعره .

وأغلب ظنى أنه كان يجد فى النبيذ متعة يسعد بها فى هذه الحياة ، وقد أباح بعض علماء الدّين شرب النبيذ إذا لم يصل شربه إلى حدّ الإسكار .

وغلبنى هذا الظنّ عند قراءة هذا الشعر للقاضى فقد أرسل إلى مَن كناه بأبى الحسن يقول له :

أبا حسن ، طال انتظار عصابةٍ رجتك لما يُرْجى له الماجدُ الحرّ
وقد فاتهم من قربك الأنس والمنى وحاربهم فيك اختيارك والدّهر
فإن كنت قد عُوّضتَ عنهم بغيرهم فعوّضْهُمُ راحاً يزول بها الفكر
فأنسُ الفتى فى الدّهر خلٌّ مساعد وإن فاته الخلُّ المساعد فالخمر
فإما رسولٌ بالنبيذ مبادرٌ وإلا فلا تغضب إذا غضب الشعر[٣]

ونستطيع أن نختم حديثنا عن صفاته النفسية بصفة عاشرة ، تلك هى أنه كان برغم انقباضه عن الناس طموحاً كبير الآمال ، نلمح ذلك فى قوله :

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى لأخدم من لاقيت ، لكن لأخدما

---

(١) الموالى : السادة .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٣ .

لا يرضى أن يعيش فى بلد لا يعزّ فيه ، ولا يقيم حيث يبتذل ولا يدرك مَنْ حوله مقداره :

وما أقيم بدار لا أعزّ بها ولا يقر قرارى حيث أبتذل[١]

وكان يدعو من لا يعز بداره إلى الرحيل عنها ، واختيار مقام جديد يحقق فيه آماله ؛ وها هو ذا يرسل إلى شاعر بلغه عنه أبيات يشكو فيها أهل ناحيته ، فكتب إليه :

إذا البلد المغمور ضاق برُحْبِه على ماجدٍ فليسكن البلد القفرا[٢]

وهو مؤمن بأنّ الصّبر هو الذى يحقّق الغايات ، ويحطّم الصّعاب والعقبات :

وما غلب الأيامَ مثلُ مجرّبٍ إذا غلبته غايةٌ غلّب الصّبرا[٣]

ولسنا نشكّ فى أنّ مدائحه لبعض أمراء عصره كان يريد بها أن يتخذّها وسيلة لتحقيق آماله ، ولا سيما أنه كان يجد نفسه أهلا لأن يظفر من الآمال بما يشاء ، على شريطة ألا يلجئه ذلك إلى ذل أو خضوع .

وكان القاضى الجرجانى يعتزّ بشخصيته ، وظهر من آثار هذا الاعتزاز أنه برغم صلته بالصاحب لم يتأثره فى التزام السجع .

ومع هذا الاعتزاز يبدو فيه تواضع العلماء ، فتسمعه يقول لمن يناظره : « فإن رأيتنى جاوزت لك موضع حجة فردّنى إليها ، ونبّهنى عليها ؛ فما أبرّئ نفسى من الغفلة ، ولا أدّعى السلامة من الخطأ »[٤] .

ومن صفاته عالماً وقاضياً تريثه فى الحكم ، وحبه للدّقة فيما يصدره من الأحكام ؛ فإذا أصدر حكماً عامًّا قرّر أنه أقدم عليه « انقياداً للظن ، واستنامة إلى ما يغلب على النفس ؛ فأما اليقين الثقة ، والعلم والإحاطة فمعاذ الله أن أدّعيه »[٥] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤ .
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٢١ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .
(٤) الوساطة ص ١٧٤ .
(٥) الوساطة ص ١٥٧ .

ولنا أن نضيف إلى كل ما سبق أنه كان رجلا يحبّ أن يتقن كل عمل يوكل إليه ، ويبذل فيه كل ما يملك من الجهود .

٣ ـ علاقته بعصره

لم يتّصل القاضى الجرجانىّ بالسياسة فى البلاد التى رحل إليها فى العراق والشام ، على ماأرجّح ؛ لأنّ همّه كان منصرفاً إلى الدّرس والتحصيل ، ووجد فى العلم ميداناً يستغرق نشاطه كله ، وربما رأى فى السياسة المضطربة التى سادت العصر الذى عاش فيه صارفاً يحول بينه وبين الانغماس فيها ؛ فإنه كان يرى عزيز اليوم ذليل الغد ، فما له يسير فى طريق لا يأمن مغبّته .

وعندما اتّصل بالصاحب بن عبّاد وبعض أمراء عصره ، لم يمدحهم بشىء يتصل بالسياسة فيما بقى لنا من شعره .

كما أن منصب القضاء الذى تولاه بعيد كلّ البعد عن السياسة فى يد رجل نزيه يعتز بنفسه كالقاضى الجرجانىّ .

ولكنه اتّصل اتصالا وثيقاً بالحياة العلمية فى عصره ، فقضى يجوب البلاد باحثاً عن أعلام العلماء ، يأخذ عنهم ، ويجلس بين يديهم طالباً مجدّاً . حتى إذا حصّل من الثقافة ما استطاع أن يحصّل ، عاد بدوره ينشر العلم بين طلابه ، وفيما يضعه من الكتب ، حتى ذكر اسمه فى الدنيا ، كما قال ياقوت [1] .

ويدلنا على ما وصل إليه فى عصره من المكانة العلمية أنه بعد أن ألف كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » أرسل إليه بعض أهل نيسابور مدحاً يقول فيه :

---

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ .

أيا قاضياً ، قد دنت كتبه وإن أصبحت داره شاحطه[١]

كتابُ « الوساطة » فى حسنه لعقد معاليك كالواسطه[٢]

وها هو ذا يرسل إليه بعض أهل رامهرمز أبياتاً يمتدحه فيها ، فيجيبه القاضى الجرجانىّ بقصيدة طويلة يقول فيها :

بدأت ، فأسلفتَ التفضّل والبرّا وأوليت إنعاماً ملكت به الشكرا

أتتنا عذاراك اللواتى بعثتها لتوسعنا علماً ، وتلبسنا فخرا

فأوليتها حسن القبول معظمًا لحقّ فتى أهدى بهنّ لنا ذكرا

تناهى النهى فيها ، وأبدع نظمها خواطر ينقاد البديع لها قسرا

مدحتَ ، فعدّدت الذى فيك من علا وألبستنى أوصافك الزهر الغرّا[٣]

وكنا نتمنى أن لو كانت الأبيات التى أرسلت إليه من رامهرمز قد وصلت إلينا لنتبين ما كان الناس يحملونه للقاضى من التقدير ، وأسباب إكبارهم له ؛ لأن البيتين اللذين قيلا فى الوساطة يدلان على مقدار ذيوع هذا الكتاب ، ووصوله إلى الأقاصى ، وما قوبل به عندما ألّف ، وفى التعبير بعقد المعالى ما يشير إلى ما كان يحمله الناس للقاضى من الإكبار والإعجاب .

كانت الصلة العلمية التى تربط القاضى بعصره قوية وثيقة ، وإذا كان القاضى ممن يؤثرون الانقباض عن الناس واعتزالهم ، كما ذكرنا ، فلم يكن ذلك الانقباض عن تلاميذه ، لأنهم هم الذين أذاعوا اسمه فى أرجاء الدنيا .

أما الصلة الوثقى التى ربطت القاضى الجرجانى بعصره تمام الارتباط فهى أخذه بنصيب من تلك الخصومة التى شبت فى عصره حول المتنبى (٣٠٣ — ٣٥٤ هـ) ؛ فمنذ حياة الشاعر تكوّنت أوساط معجبة به فى حلب ، والفسطاط ، وبغداد ، وشيراز ، حيث كان ديوان الشاعر يشرح .

---

(١) شاحطة : بعيدة .

(٢) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .

(٣) يتيمة الدهر ٤ : ٢١ .

أما دائرة حلب ، فقد تفرقت بموت سيف الدولة ؛ لأنها كانت فى جوّ معاد للشاعر ؛ وكذلك كان مصير دائرة شيراز ؛ فمنذ أقام عضد الدّولة فى بغداد ، ذابت فى دائرة عاصمة الخلافة .

ولم يضع موت المتنبى حدًّا للعداوة التى يحملها كثير من الكتاب والشعراء والعلماء للشاعر وديوانه :

فأحياناً تبدو هذه العداوة بالصمت ، ويظهر أنّ ذلك كان حال أبى الفرج الأصفهانى الذى لم يذكر مرّة واحدة شاعر سيف الدّولة فى كتابه العظيم : « الأغانى » ، وحال المرزبانىّ أيضاً (المتوفى سنة ٣٨٣ هـ) ؛ إذ لم يُشر إلى المتنبى أية إشارة بخير أو بشرّ فى كتابه : « الموشح » فى أخطاء شعراء العرب .

ومع ذلك لم يستمر النقد ملتزماً هذا الصمت المعاتب ، بل انتقل إلى دور الهجوم بعنف من لم يعد يخشى ردّ الشاعر الذى مات .

وقد بدأ ذلك الصاحب بن عباد ؛ فقد صنّف مؤلفاً صغيراً سمّاه : « الكشف عن مساوئ شعر المتنبى » ، كما عنى الحاتمى الذى كان قد حادث المتنبى — بنقد ديوان أبى الطيب ، فى رسالتين ، عنوان إحداهما : « الموضحة فى ذكر سرقات المتنبى والساقط من شعره » ، وتعرف هذه الرسالة أيضاً بالرسالة الحاتمية ، كما تعرف الثانية « بالرسالة الحاتمية » كذلك ، وفى مقدمتها يذكر أنّ بعض شعر المتنبى يذكّر بأفكار أرسطو ، ثمّ أورد مائة حكمة من حكم أرسطو ، وأتبع كل حكمة ببيت من شعر المتنبى ، يشتمل على فكرة مشابهة .

أما العسكرى الناقد البغدادى المؤلف لكتاب الصّناعتين ، والمتوفى بعد سنة ٣٩٥ هـ ، فيظهر أنه لم يقابل المتنبى ، وأن عداوته ناشئة من آراء شخصية لأبى هلال ، لا يرى شعر المتنبى يتفق معها ، وقد قال أبو هلال عنه : « لا أعرف أحداً كان يتتبع العيوب ، فيأتيها غير مكترث إلا المتنبى ؛ فإنه

ضمّن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئاً منها »[1] .

أمام هذا الاتجاه المعادى للمتنبى ، نهض حبّ المعجبين بالشاعر ، وأخذ عددهم يزداد فى كل يوم .

فالصّابئ ، رئيس ديوان الإنشاء فى بغداد ، والذى كان يفكر فى أن يمدحه الشاعر ، لم يخطئ عندما كان يقتبس من شاعر الكوفة .

وفى بلاط البويهيين بالرّىّ ، لا ندهش عندما نرى الضّبّىّ ، أحد كتّاب الإنشاء ، والذى كان من المخلصين فى خدمة ابن عباد ، يستعير بعض أخيلة المتنبى .

ومما هو جدير بالنظر أنّ الوزير ابن عباد وجد نفسه مقوداً بغير إرادته إلى أن يعترف بمواهب الشاعر الذى يهاجمه ، بأن نثر أو تمثل علانية ببعض شعره الجيد .

كما نجد أبا بكر الخوارزمىّ الكاتب والشاعر ، معجباً بالمتنبى ، يقلّد ديوانه ، وينشره منذ عودته إلى خراسان .

ولن ندهش عندما نرى واحداً من أكثر تلاميذ المتنبى تحمساً له ، وكان الشاعر يعدّه أميناً على آرائه ، وهو ابن جنى — يدافع عن أستاذه فى شرح ، وفى مصنّفين صغيرين : أحدهما يدرس ما تناوله الدّيوان من الفنون الشعرية ، والثانى يفنّد الهجمات التى وجّهها ابن وكيع المصرى إلى الشاعر .

ولم يكن اتجاه الإعجاب بالشاعر خاصّاً بابن جنى ولا بوسطه ؛ لأننا نجده فى بخارى عاصمة السامانيّين ؛ ففى حكم نوح بن منصور (٣٦٥ — ٣٨٧ هـ) ، نجد أبا الحسن محمد بن أحمد المشهور بالمتيّم يؤلف كتاباً عنوانه : « الانتصار المنبى عن فضل المتنبى » .

وفى هذا التاريخ تقريباً وضع أبو الحسين حمزة بن محمود الأصفهانى ، أحد

---

(١) ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين ص ٥ — ٩ ، وراجع الصناعتين ص ١٣٠ ، ١٤٢ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

كتّاب البويهيين — « رسالة فى كشف عيون المتنبى » وفيها يرينا بالشواهد التفوق الأدبى للمتنبى .

وكان هذا الحزب هو الحزب المعارض للنقد الذى وجهه الصاحب بن عباد. خصومة بعض الناس للمتنبى ، وغرام البعض الآخر به ، ترك المكان لموقف ثالث ، هو النقد الذى لا ينكر قدر المتنبى ، ويأبى أن يغمض العين أيضاً عن هفوات ديوانه .

وكان القاضى الجرجانى الحائز لفضيلة السبق ؛ فلكى يردّ على ابن عباد ألّف كتابه : « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، حيث أراد أن يؤيد ما هو صحيح من الهجمات التى وُجّهت إلى الشاعر ، ويبين أيضاً ما يستحقه بجدارة من مدح المعجبين به [1].

وهكذا كان اتصال القاضى الجرجانى بعصره اتصالاً قويًّا عندما أدلى بدلوه فى خصومة طال النزاع فيها فى العصر الذى عاش فيه .

---

(١) المرجع السابق : ديوان المتنبى . . . ص ٩ — ١٢ .